



مجلة دراسات تاريخية

ISSN: 9741-2352

EISSN :6723-2600



التأريخ للأفكار الدينية عند الشيخ مبارك الميلي

**The history of religious ideas according to Sheikh
Mubarak Al-Mili**

أد/ربيع لعور

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية (الجزائر)

rabiehb@hotmail.com

المرسل: ربيع لعور

النشر: 24/12/11

القبول: 24/12/06

الارسال: 24/04/21

الملخص:

حظي كتاب تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي بشرف الأولية في هذا المضمار، ما حفّز الباحثين على دراسته وبيان مزاياه ونقائصه، وقد جاء هذا المقال ليسد فراغا بحثيا في مجال تاريخ الأفكار الدينية فيه، حيث تكشفَ للباحث خلوا الإشارة إلى ذلك في الدراسات السابقة، ما شجّع على تتبع الكتاب مستخدما المنهج الاستقرائي ابتداء ثم أعمال المنهج التحليلي في دراسة ما رشح عنه الاستقراء، وقد اهتدى إلى ثمانية ظواهر اجتماعية اعتنى الميلي بتتبع تاريخها في العصور القديمة؛ وقد تجلّى لنا أن بقايا ورواسب العبادات والمعتقدات القديمة لا يزال لها وجود في عمق المجتمع الجزائري، وإن شاب بعضها نوعٌ من الأسلمة التي انتقلت بتلك العوائد القديمة من ظاهرة الشرك الصريح إلى مصطلحات شرعية رائقة كالتبرك وتقديس الصالحين وهلم جرا، وقد لفت نظر الباحث ظهور النَّفس الإصلاحية في كتابة التاريخ عند الميلي؛ فمع أن وظيفة المؤرخ سرد الأحداث كما هي إلا أن شخصية الميلي الإصلاحية أثّرت في قلمه التاريخي.

الكلمات الدالة: مبارك الميلي، الكتابة التاريخية، الأفكار الدينية، العبادة، الجزائر.

Abstract

The book The History of Algeria by Sheikh Mubarak Al-Mili was the first to be written on this subject, and this encouraged researchers to study it and show the images of perfection and deficiency in it. This article came to study the subject of the history of religious ideas in the book, because it had not been researched in previous studies, so it encouraged me to study the book using the inductive approach. And the analytical method, I reached eight social phenomena whose history Al-Milli studied in ancient times. This shows that remnants of ancient worship and beliefs still exist in Algerian society, noting the influence of Islam on some of these customs. The researcher noted the emergence of a reformist trend in writing history according to Al-Milli. Although the historian's job is to tell the story of events as it is, Al-Milli's scholarly personality influenced his way of writing history.

Keywords: Mubarak Al-Mili, historical writing, religious ideas, worship, Algeria.

مقدمة:

يعدُّ تاريخ الجزائر في القديم والحديث للشيخ مبارك الميلي (ت1945م) أحد أهم كتب تاريخ الجزائر، من جهة توقيته الذي ظهر فيه إبان الاحتلال الفرنسي الجاثم على الأمة الجزائرية، ومن ناحية أوَّلِيَّتِهِ وسبقه، حيث ابتدر مؤلفه إلى عمل علمي بَكْرٍ؛ فاخترت أنامله أول كتاب في تاريخ الجزائر الحديثة، ممَّا استحثَّ كثيرا من المؤرخين والباحثين إلى دراسته ببيان أوجه الكمال، ونقد مواطن النقص.

وقد اعتنى كلُّ بزاوية يراها جديرة بالبحث؛ بيد أن هناك جانبا بالغ الأهمية، غفل عنه الباحثون -على الأقل في حدود اطلاعي-؛ وهو بيان أثر العلوم المساعدة في كتابة التاريخ عند الميلي، فلا يخفى على المشتغلين بهذا العلم الشريف، هو نزوع بعض المؤرخين إلى علوم مساعدة في كتابة التاريخ، حيث يتم توظيفها في قراءة الأحداث، وتفسير الوقائع، ولعل من أوائل من أشاد بهذا هو العلامة ابن خلدون حين قال: "اعلم أن فنَّ التأريخ فنُّ عزيز المذهب جمُّ الفوائد شريف الغاية ... فهو محتاج إلى مأخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط".⁽¹⁾

ومن المستملح أن نشير إلى أن هذا التوجه جنحت إليه حتى بعض المدارس الغربية في كتابة التاريخ، لعل من أبرزها مدرسة الحوليات الفرنسية، فابتداء من القرن العشرين اعتمدت بقوة على العلوم المساعدة، حتى قال فرونسوا دوس (Dosse): "لم تعد الحوليات مجرد تجمع احتكاري، بل نجحت في حشد العلوم الإنسانية تحت رايتها".⁽²⁾

هذا، ومن خلال تتبعي للكتاب شدَّني غلبة النبرة الإصلاحية على المؤرخ الميلي؛ أو بالأحرى التوجيه العقدي في كتابته التاريخ، حيث ظهر لي تأثره بتخصّصه في العلوم الشرعية، فحمله على أن ينفث في كتابته للتاريخ نفثات عقدية تنمُّ عن التزامه بمبدأ الإصلاح الديني وفقا لمنظوره، وطبقا لمبدأي الإمداد والاستمداد، وأكثر ما استوقفني فيه، عنايته بتاريخ الأفكار الدينية في القطر الجزائري، حيث تلمَّحت تنويعه بالأصول التاريخية لبعض الظواهر الاجتماعية التي صنفها في خانة البدع أو الشراكيات ضمن تراثه، لا سيما كتابه الشهير: رسالة الشرك ومظاهره، فإنك تلحظ تسلُّط هذا الهاجس عليه، ولهذا لا يفتأ مُعَرِّجا عليه متى لاح له ظهور ذلك المعنى في حدث تاريخي أو ظاهرة اجتماعية.

وهذا غير مستغرب لتزامن التأليف في الكتابين معا، فقد واكب وقت إخراج كتابه في التاريخ، صدور بعض مباحث كتاب رسالة الشرك ومظاهره في شكل مقالات متتابعة في جرائد الجمعية، غير أنها لم تستوِ على سوقها في صورة كتاب إلا سنة 1937م، بينما طبع الجزء الأول من التاريخ سنة 1928م وصدر الآخر سنة 1932م.

ومن هنا جاءت فكرة هذه المقالة التي وسمتها بعنوان:

التأريخ للأفكار الدينية عند الشيخ مبارك الميلي.

1/ أهمية البحث:

يمكن حصر الأهمية في النقاط الآتية:

- أهمية الكتاب ذاته من جهة تاريخ الكتابة، وباعتباره أول كتاب في تاريخ الجزائر.
- وجاهة شخصية الميلي وريادته في كتابة تاريخ الجزائر.
- أهمية التأريخ للفكر الديني في الجزائر.
- أهمية موضوع تاريخ الأفكار بصفته علما حديث النشأة في العصر الحديث، جاء نتاج تمازج بين علم التاريخ وعلم الفلسفة.

2/ أسباب البحث:

تتخصر أسباب طرق هذا الموضوع في الآتي:

- المؤرخ وهو يعالج الظواهر التاريخية، ويرصد أحداث الزمان ووقائعه؛ يستصحب تخصصه العلمي، ويستهدي بمذهبه الفقهي أو العقدي أو الديني، وهو ما أردت إظهاره من خلال عالم ديني وفقهه إصلاحي، يكتب في التاريخ متأثرا بصنعتة العلمية.
- إظهار بعض الملامح الخفية التي تميز بها كتاب تاريخ الجزائر للميلي.

3/ إشكالية البحث:

الشيخ مبارك الميلي من أوجه الشخصيات العلمية التي تربعت على عرش جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهو أمين مالها والناطق باسم توجهها، وبحكم تكوينه الشرعي، وبصفته عالما فقيها وأديبا أربابا؛ يحق لنا أن نتساءل عن مدى تأثره بمنحاه الإصلاحية وتوجهه الفكري في كتابة التاريخ. وتبعاً لما سبق؛ فإن إشكالية البحث تتمثل في هذا السؤال:

ما الأفكار الدينية التي أرخ لها مبارك الميلي في تاريخ الجزائر متأثرا بتكوينه الشرعي والعقدي؟ هذا الإشكال الكبير يُحيلنا إلى الإجابة عن الأسئلة الفرعية الآتية:

- ما أهم الأفكار الدينية التي قاربها الميلي وفقاً لمنظوره الإصلاحية؟
- ما الأحكام التي أطلقها تبعاً لتاريخ الفكرة الدينية؟

4/ أهداف البحث:

يهدف البحث إلى الآتي:

- إظهار نسب بعض الظواهر الدينية في العصر الإسلامي بالجزائر، وربطها بأصولها التاريخية في العصور القديمة.

- إبراز تأثير مبارك الميلي بتكوينه الشرعي وتوجهه الإصلاحية في كتابته للتاريخ.
- إبراز وجه خفي من وجوه تميز الكتابة التاريخية عند الميلي.

5/ الدراسات السابقة والإضافة العلمية للبحث:

توجد جملة من الدراسات القيمة التي لها صلة بالموضوع العام لهذا البحث، لكنها لم تتناول هذه الجزئية المستهدفة وفقاً لما ذكرت، وسأخص الصقها بموضوعنا، وهي:

- الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لتاريخ الجزائر، للباحث: أد. عمارة علاوة: مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ. العدد 03 ديسمبر 2008م (ص94-102).
 - وقد تناول السياق التاريخي للكتاب، موضحاً أنه جاء ردة فعل على الحملة الفرنسية المشوهة لتاريخ الفاتحين، محاولاً التأصيل لفكرة -الدولة، الأمة-، مبيناً تأثيره بالتقسيم الزمني والسياسي والعرقى والسلالاتي للمؤرخين الفرنسيين، ناقداً له من جهة قلة المصادر التاريخية، وخلاصة رأيه أنها كتابة ظرفية نضالية تفقد قيمتها بزوال الهدف الذي كتبت من أجله، وكما ترى فالجانب المدروس في المقال لم يُشر إليه الباحث؛ لأنه لم يقصد الحديث عن هذه الجزئية.
 - كتابة تاريخ الجزائر عند مبارك الميلي -شيخ المؤرخين الجزائريين-، للباحث: د مراد قبال: مجلة رؤية تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطة، المجلد 01 العدد 02، أكتوبر 2020م. هو على منوال سابقه، اعتنى بمميزات الكتابة التاريخية للميلي بنوع من الإجمال الذي يحتاج إلى تفصيل، كما في صفحة 11، كما أنه لم يعرض البتة لتاريخ الأفكار الدينية.
 - الشيخ مبارك الميلي، عرض لحياته ومنهجه في الكتابة التاريخية، للباحث: د رشيد مياد: مجلة الباحث. المجلد 12 العدد 03 السنة 2020م (ص8-22)، فقد اعتنى بعرض حياته وبيان منهجه في الكتابة التاريخية، مع اتسامها بالاعتصاب، وأما بخصوص موضوع المقال فلم يشر إليه البتة.
 - جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تدوين تاريخ الجزائر، مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني أنموذجاً، للباحث: د متشاط عبد الغني: مجلة دراسات في التنمية والمجتمع. المجلد 07 العدد 02 السنة 2022م (ص26-34)، هو على شاكلة سابقة اكتفى بالتوصيف لمباحث الكتاب، ولا إشارة فيه لما استهدفناه في هذا المقال.
- ومن خلال هذا السرد لأهم البحوث المتصلة بموضوع الكتابة التاريخية عند الشيخ مبارك الميلي، يسلس لنا القول بخلو موضوع البحث من دراسة سابقة، ولا يعني هذا انتقاص ما كتب، فهي دراسات طيبة حقيقةً بالإشادة؛ لكنها خلت من التنويه بهذا الملحظ.
- وتأسيساً على ما سبق، يمكن حصر الإضافة العلمية للبحث في الآتي:
- تتبع وحصر الأفكار الدينية التي اهتم بها الميلي.
 - بيان نسب الظواهر الاجتماعية بأصولها الدينية والعقدية.
 - إبراز جانبٍ خَفِيَ عن الكاتبين في تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي.

6/ حدود البحث:

دائرة البحث منحصرة في كتاب تاريخ الجزائر؛ لأنه الأثر الوحيد الذي خَلَفَهُ مؤلفه في حقل التاريخ، مع الاستفادة الجزئية من كتاب رسالة الشرك ومظاهره لإحكام الربط بين الظاهرة الاجتماعية والتأصيل العقدي لحكمها، بغرض بيان الصلة لا تقرير الأحكام؛ لأنه يخرج عن مهيبة الدراسة التاريخية.

7/ منهج البحث:

وظفت المنهجين الآتيين:

- المنهج الاستقرائي: عكفت على تتبع الكتاب كاملا، مستخرجا جميع متعلقات الموضوع، واستظهرت المواطن التي ظهر فيها التأريخ للفكر الديني.
- المنهج التحليلي: تحليل نتائج الاستقراء، والاحتفاء بالامتدادات التاريخية لبعض الطقوس.

8/ خطة البحث:

طبيعة الموضوع وتعدد صور الأفكار الدينية التي عالجها الميلي تاريخيا، دفعتني إلى إثارة تقسيم البحث بحسب الأفكار المذكورة، على النحو الآتي:

1. تاريخ فكرة تقديس الحمامات.
2. تاريخ فكرة تقديس العيون.
3. تاريخ فكرة تقديس الأشجار.
4. تاريخ فكرة تقديس الجبال والكهوف.
5. تاريخ فكرة تقديس الشمس.
6. تاريخ فكرة تقديس القبور والمقبرين.
7. تاريخ فكرة التصوف.
8. تاريخ فكرة العرافة.

إذا تمهّد هذا، نشرّع في تفصيل ما سبق إجماله بإذن الله تعالى.

1. تاريخ فكرة تقديس الحمامات:

التعبّد بالاستحمام عريق القدم في بلاد المغرب القديم، فقد ذكر هيرودوت (Hérodote) أن النساء في ليبيا كنَّ يخرجن للاستحمام في بحيرة تريتون (Lac De Triton) بقصد الاستسقاء،⁽³⁾ ونقل القديس أوغسطين (Augustin) عن النوميديين أنهم كانوا في منتصف كل صيف، وعند الاعتدالين الربيعي والخريفي من كل سنة، يغتسلون عراة في البحر تطهرا من الآثام.⁽⁴⁾

ويرجع بعض الباحثين ظهور الحمامات إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وتحديدًا زمن الإغريق؛ لكنها كانت ممارسة ساذجة، تتم على ضفاف الأنهار والوديان، ولم ترق إلى فعل اجتماعي داخل هياكل مخصصة له إلا في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي، في عموم المدن الرومانية.⁽⁵⁾

فبحكم وقوع الغزو الروماني لشمالي إفريقيا، انتشرت ظاهرة الحمامات الرومانية، وبناء عليه فإن تاريخ الحمامات في الجزائر عريق، والذي يغلب على الظن أنه يرجع تاريخها -في أقل تقدير- إلى ألفي عام، حيث تتوافر كثير منها في ولايات الجزائر، ومن أشهرها: خنشلة، سطيف، قالمة، باتنة، وهران، وغيرها كثير يمتد على ربوع الوطن.

ومنذ ذلك الحين استحال ارتياد الحمامات عادة اجتماعية في المجتمع الجزائري، والميلي بصفته مؤرخا يتصيد الأحداث ولو قلّت، ويعرّض لأيّ ظاهرة ولو جلّت، ينظر بنظرة العالم المصلح لعقائد المكلفين، وقد اعتنى الميلي بهذا الموضوع من ناحيتين:

الأولى: عراقة وجودها وسعة انتشارها، فقال: "وأما الحمامات الطبيعية فهي كثيرة وموجودة بجميع جهات الوطن الجزائري..."⁽⁶⁾.

والثاني: بيان أثره في اعتقادات العامة، التي تصبغ عوائدها أحيانا بصبغة الدين؛ فقال: "والعجائز ومن في معنهن من ضعفه العقول ومعبدي الجهل يعتقدون أن لهذه الحمامات ميزة، وفيها سرا إلهيا، فيدعوها حمامات الصالحين ويقصدهن للتبرك؛ والعواقر يستحمن بها رجاء النسل.

ومن سخافة عقول هؤلاء المساكين -رجالا ونساء- اعتقادهم أن الجن هم الذين يتولون تسخين تلك المياه ليستحم فيها سليمان -عليه السلام- لجهلهم موته، والقرآن ذكر أن الجن جهلوا موت سليمان ثم علموه عندما أكلت دابة الأرض من منسأته وخرَّ على الأرض، ولكن الجهال ينسبون إلى الجن كل ما جهلوا أصله من الأمراض وغيرها"⁽⁷⁾.

فالملاحظ أنه استطرد في تحليل الظاهرة بمساعدة خلفيته الفقهية، حيث وقف مع هذا الحدث من جهتين:

- اعتقاد البركة في مائها، ويتبعه الاستشفاء به من الأمراض.

- اعتقاد أن الجن يقومون بتسخينها لسليمان U بدعوى استحمامه فيها.

وكلا الملاحظين له جذوره في التاريخ القديم للإنسان المغاربي كما يستشف من كلام الميلي؛ فاعتقاد البركة وإن كان له مفهوم إسلامي إلا أنه سليل اعتقاد القداسة في الماء عند القدماء، كما أن اعتقاد ارتباط الجن بالماء قديم قدم التاريخ، فقد كان المغاربة القدامى يعتقدون الربط بين منبع النهر وروح جني يدعى (Genius)، فيقدمون له القرابين لحمايته.⁽⁸⁾

وعلى جميع هذه الاحتمالات؛ فقد تولَّد عنها ظاهرة اجتماعية خطيرة وفقا للميلي، ترجع إلى اعتقاد القداسة في هذه الحمامات، وما يتبعه من خرافات تخدش صفاء العقل، وتطمس نور الدين الصحيح، الذي يسمو بالعبد عن حضيض التعلق بالأشياء إلى التعلق برب الأشياء وهو الله تعالى، وهذا ما عمل الميلي على تحقيقه من خلال مسيرته العلمية.

وزبدة القول أن التحقيق التاريخي الذي خلص إليه الشيخ الميلي يفيد أن اعتقاد البركة في الحمام تنتهي فكرته إلى تاريخ المغرب القديم، وأنه استمرار لهذه الفكرة ولكن مع صبغها بشائبة التبرك الإسلامي، الذي اهتبل الميلي بضبطه وتفصيل المشروع منه والممنوع في الإسلام من خلال كتابه: رسالة الشرك ومظاهره.⁽⁹⁾

2. تاريخ فكرة تقديس العيون:

الماء عنصر الحياة، وأساس أي تجمع بشري، ومصدر الرقي الحضاري لأي دولة، وقد تعلق الإنسان بالماء منذ القدم، وازداد هذا التعلق مع قلة الماء بسبب مواسم القحط وقلة موارد المياه، مما جعل الإنسان يمارس تقديسا يصل إلى حد العبادة لمصادر المياه كالعيون والوديان والأنهار وغيرها، وقد ذكر الدكتور غنام أن عبادة الأودية والأنهار عرفت عند إنسان شمال إفريقيا منذ القدم، كما وجدت محاريب عبادة في بعض الآبار العتيقة في ذلك العصر، مما يوحي بترسخ التعبد فيها.⁽¹⁰⁾

وهذا ما لم يفت الميلي استثماره، بأن حمل حملة نكير على تعظيم بعض العامة لعيون الماء، وعزى ذلك لرواسب الديانة القديمة لسكان الجزائر القدامى؛ فقال: "... ومن تعظيمهم لبعض العيون أنهم يتبركون بمياهها ويستشفون بالشرب منها ويرجون منها النسل ويقربون لها القرابين الدجاجة"،⁽¹¹⁾ وساق هذا الكلام ضمن حديثه عن الديانات القديمة التي عرفها قدماء الجزائر.

بيد أن الناظر يشم رائحة تأثر هذه الطقوس القديمة بالديانة الإسلامية، وهو ما يستشف من كلام الميلي، وبخاصة استعماله لمصطلح التبرك الوارد في نصه السابق، وهذه الفكرة كثيرا ما يدندن حولها الميلي في معالجه للظواهر الاجتماعية، وهو ما يقودنا إلى استنتاج مفاده أن بعض الأفكار الدينية القديمة لا تبلى في بعض البيئات، بيد أنها تتأقلم مع الديانة الوافدة الجديدة، فتصبغ بصبغة "الأسلمة"، وشاهده ما سنذكره في ثنايا هذا البحث.

3. تاريخ فكرة تقديس الأشجار:

يرجع أصل الديانات عند علماء الاجتماع إلى تقديس الحيوان وعبادته (تيتو تيميزم) أو تعظيم الأشجار⁽¹²⁾، وقدماء الجزائر عرفوا عبادة الأشجار، باعتبارها سكنا للمقدس، وقد ذكر أرنوب (Arnobé) في القرن الرابع الميلادي، أنه شهد سكانا يمارسون طقوس تعبدية في الأشجار، حيث كانوا يعمدون إليها، ويربطون بها خيوطا وخرقا بقصد طرد الأرواح الشريرة.⁽¹³⁾

وعقب تقرير الميلي لهذه الديانة في المغرب القديم، عرّج كعادته على سليل هذه الظاهرة في المجتمع الجزائري؛ فقال: "... ومن تعظيمهم لبعض الأشجار أنهم يجتنبون قطعها، واحتطاب ما سقط من عيدانها، ويلقون بها الخيوط رجاء أن تقضي حاجاتهم، كما يعلق أحدا بأصبعه خيطا كي يذكر به ما يخشى نسيانه".⁽¹⁴⁾

وما ذكره الميلي مشاهد في عدة مناطق من الجزائر، صحيح أن الظاهرة تراجعت بشكل كبير؛ لكن فكرة التقديس لم تمحها الأيام من ذاكرة الإنسان الذي يحاكي بعقله الباطن -اللاوعي- أجداده في التاريخ القديم.

ولذلك وجدنا الميلي يولي هذا الموضوع أهميته في رسالة الشرك ومظاهره، حيث يشجب ناعيا على من يقدس الأشجار، ويتقرب لها بالقرابين، ويشد الرحل من أجلها، فيقول: "أين أنتم من هذا يا من اتخذتم من القبور والمزارات أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ... واتخذتم من شجر البطم والسدر وغيرهما ذات أنواط تعلقون به الخرق والخيوط، وتسرجون له الأضواء، وتعطرونه بالمباخير والرياحين ...".⁽¹⁵⁾

وزرّى على العامة ما يجترحون من تبرك ببعض أنواع الشجر تأثرا بما مضى عليه الأقدمون؛ فقال: "وقد حدثوني أن في زواغة غربي ميلّة مرابطاً، له أشجار من الشجر المدعو عندنا: الهندي، يعلقون منها في أعناقهم دفاعاً للحمي، وأن هذا التعليق شائع بينهم".⁽¹⁶⁾

والحاصل أن هذه المظاهر نتاج طبيعي لرواسب الأفكار الدينية القديمة في الجزائر، بيد أنهم صبغوها بالنكهة الإسلامية، ولو بتأويل باطل غير مقبول شرعا، بإضافة هذا التقديس إلى التبرك ونحوه.

على أنه يحسن التنبيه إلى أن تقديس الأشجار وعبادتها، ظاهرة لم يختص بها المغرب القديم، بل إنها وجدت في جميع الحضارات القديمة، وهو ما يفرض تساؤلاً عن الأصيل في هذه العبادة أو الدخيل المتأثر بغيره، وهو ما يستحث الباحثين على الجواب عن هذا السؤال،⁽¹⁷⁾ فبعض الباحثين قد يجمع في استنباطه ويزعم أن أهل المغرب القديم استوردوا معتقداتهم من الحضارات القديمة التي تفوقهم شهرة، وهذا محل نظر؛ فقد أثبت الدكتور شنيقي أنَّ الاتصال الديني عريق في القدم بين المغرب القديم وغيره من الحضارات، فقد اتصل المصريون بسكان المغرب القديم -الليبيين- والعكس، حتى إن بعض الليبيين وصلوا إلى سُدَّة الحكم في مصر، ونقلوا معبوداتهم إلى المصريين، كما تحدث هيرودوت عن تأثير الليبيين في الإغريق، حتى إنهم تشبهوا بلباسهم، بل وعبدوا بعض معبوداتهم.⁽¹⁸⁾

ومن الدلائل على وجودها القديم في جزيرة العرب، ما جاء في حديث أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ت: أَنَّهُمْ خَرَجُوا عَنْ مَكَّةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، قَالَ: وَكَانَ لِلْكَفَّارِ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، قَالَ: فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ خَضِرَاءَ عَظِيمَةٍ، قَالَ: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "قُلْتُمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى: [اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ] قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" [الأعراف: 138] إِنَّهَا السَّنَنُ، لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُنَّةً سُنَّةً".⁽¹⁹⁾

4. تأريخ فكرة تقديس الجبال والكهوف:

تعد الجبال والكهوف بمثابة العبادة الطبيعية الأولى بالمغرب القديم، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب: أحدها: اعتقادهم أنها مسكن للآلهة بسبب ارتفاعها وضخامتها، ولهذا استمر سكان أعالي الجبال على تقديسها مدة طويلة بحكم بعدهم عن الأجانب.

ثانيهما: علوها وشموخها حمل الناس على قصدها، والتخلي في كهوفها؛ لأنهم يكونون أقرب إلى الإله المعبود وفقاً لتصورهم.

ثالثها: كهوف الجبال موئل للأرواح، وبوابة بين العالم الحقيقي والعالم الآخر، ولذلك يزينونها بالرسوم الصخرية.

وتشير جميع الكشوف الحفرية إلى وجود تقديس حقيقي للجبال والكهوف، وهو ما يُستفاد من الرسوم الصخرية التي وجدت في التاسيلي وغيره، وكذا المدافن التي وجدت بها، وهل للكهوف آلهة خاصة أم لا؟ لا دليل قاطع على كلا الاحتمالين، وأصحاب نظرية التآليه يرون إله الكهوف هو: إفري (Ifri)، وفي المحصلة نجد حضور عنصر التقديس، سواء عدت آلهة أم لا.⁽²⁰⁾

وعلى ضوء ما سبق، يربط الميلي بين فكرة تقديس كهوف الجبال وبين هذه العقيدة الوثنية برباط التاريخ، غاية ما في الأمر أن الديانة الإسلامية حملت بعض الجزائريين على التأويل المتكلف لشرعنة هذه الظاهرة الاجتماعية، يقول الميلي: ".... ومن تعظيمهم للجبال تقديم النذر من الأطعمة والأنعام لبعض الكهوف وزيارتها زرافات ووحداناً، وتطيب روائحها بالبخور ومياه الرياحين، وقد يتأولون ذلك بأن أحد الصالحاء مرَّ بهذا الكهف أو جلس عنده.

وعلاوة على كون هذا التأويل غير مبرر لفعلهم؛ فإن الصلحاء جلسوا في غير الكهوف أيضا، ومشوا في السهول والبساتين⁽²¹⁾.

تأمل تصريحه بحضور مظاهر التعبد والتقديس وبقائها؛ ولكنها أعطيت أبعادا لها صلة بالتراث الإسلامي، فنحن نرى أنَّ التطور العقدي لهذه التصرفات قد خرج بها من عبادة الوثنية القديمة إلى مصطلحات شرعية كال تبرك بالصلحين، وتقدي آثارهم، وقد رأينا نقض الميلي لشبهتهم التي تعلقوا به، فأبان بأن الصالحين مشوا في السهول أيضا، فلو كانت العلة صحيحة للزمهم التبرك بالسهول وتقديسها أيضا ! وهذا التهافت والاضطراب في تعليلهم للظواهر الدينية، يدلُّ على أنَّ المجتمع الجزائري بقي مستمسكا بموروثه القديم، وفكرته الدينية في تقديس الجبال والكهوف، غير أنه أضفى عليها الشرعية بشبهة تعظيم الصالحين، وبهذا التوجيه يكون الميلي قد أحكم الصلة التاريخية بين فكرة تعظيم الكهوف والجبال عند الخلف، وربطها بما كان عليه آباؤهم الأقدمون.

5. تاريخ فكرة تقديس القبور وتعظيم المقبورين:

عبادة القبور من أقدم العبادات في الأرض؛ فالدلائل الشرعية وعلى رأسها القرآن الكريم، تشير إلى أنها العبادة السائدة في زمن نوح عليه السلام، وهذه الظاهرة اعتنى بها الميلي سواء من الناحية الشرعية أم من الناحية التاريخية، وبخاصة ما يتعلق بتاريخها، بيد أن له رأيا في ذلك.

الأول: في رسالة الشرك ومظاهره، فبعد أن قرَّر الميلي مذهب تحريم الزيارات التي تحدث عند القبور، أو ما إلى تاريخ هذه الظاهرة، والذي يظهر من ثنايا كلامه أنه جعل تقديس المقبورين وتعظيم أضرحتهم عبادة تأثر فيها المسلمون -بما فيهم أهل الجزائر- بأهل الكتاب، كما هو ظاهر بعض الأحاديث النبوية⁽²²⁾.
الثاني: وهو رأيه في تاريخ الجزائر، حيث مال إلى أن تقديس القبور وتعظيم المقبورين الموجود في الجزائر له تعلق بعبادة مستوحاة من واقع الديانة الوثنية عند قدماء المغرب؛ فقد حكى عنهم جملة من الطقوس؛ زبدتها أنهم يشيدون أضرحة عظيمة للموتى، وأنهم يدفنونهم بطريقة مخصوصة نابعة من اعتقاد راسخ أنهم يحيون حياة أخرى بعد الموت، وأنهم أكمل علما من الأحياء، ولهذا ينامون فوق القبور، وما تملهم عليهم الأحلام بعد نومتهم يفعلونه، بداعي أنه توجيه من الميت، وما حكاها الميلي نقله هيرودوت في رحلته الشهيرة⁽²³⁾.

يقول الميلي: "... ويحترمون الأموات؛ يشيدون لهم قبورا ضخمة ... وكان قدماء الجزائر يعتقدون بحياة أخرى غير الحياة الأولى، ويرون أن الميت في قبره أكمل منهم علما.

يدل على ذلك ما تقدم من أن منهم من يضع الميت في قبره جالسا ملتصقا بطنه بفخذه ولحاه بركبتيه، يمثلون بهذا الوضع هيئة الجنين في بطن أمه. كأنه بموته ولد في عالم آخر، ولذلك يضعون معه أطعمة وأشياء من الزينة ..."⁽²⁴⁾.

ولم يفت الميلي أن يشير كعادته إلى أثرها في عقائد أهل عصره ومصره، في زمنهم أو زمن من كان قبلهم، غاية الفرق أنها ألبست لباسا دينيا في نظره، وذلك بإضافة هذه القبور إلى رجال صالحين حقهم التعظيم، قال الميلي: "... أما تشييد القبور الضخمة للأموات واتخاذ الحرم لها؛ فقد بالغوا فيه أكثر مما تقدم وأربوا

في ذلك عن كل أمة حتى صاروا يشيدون القباب لا على ضريح ولا على أثر من مواقع أقدام صلحائهم، وشرح هذا المقام يوسع دائرة خروجنا عن موضوع الكلام".⁽²⁵⁾

فأنت ترى أنه يعقل ما يفعل، ويدري ما يكتب، وأنه قد استطرد بمعونة علمٍ مساعدٍ خارجٍ عن دائرة علم التاريخ الذي يقصد الكتابة فيه.

ثم إنّه في تنمة الكلام ربط بين معتقد القدماء وواقع المتأخرين، أي أبرز تاريخ الفكر الديني لتعظيم القبور وتقديس المقبورين، فقال: "... وإذا أهمهم أمر لم يهتدوا إلى وجهه استشاروا الموتى من أسلافهم: ينام أحدهم على قبر سلفه وما رآه في منامه عمل بمقتضاه في يقظته، وللجزائريين اليوم حظ وافر من هذه العقيدة المباركة على الانحطاط والتقهقر!"⁽²⁶⁾

ولأن الميلي مهتم بتواريخ الظواهر الدينية، حاز موضوع خالد بن سنان العبسي عناية خاصة في كتابه؛ فهو شخص نُسب إلى الصلاح بله جُعِلَ في مصافِّ الأنبياء، فصيّرت العوام ضريحه مزارا مشهورا في منطقة سيدي خالد التي سميت تيمنا برمسه، وهي واقعة حاليا في ولاية بسكرة.

وقد انتصر الميلي إلى أن بلاد المغرب لم يدخلها نبي قط، موافقا أحد علماء الجزائر، وهو إسحاق المدشوني البسكري؛ ثم قال: "ومن هذا النقل عن عالم جزائري صحراوي قديم مشهود له بالصدارة في العلم؛ تعلم أن لا صحة لاعتقاد العامة وجود خالد بن سنان العبسي بوطننا، وزيارتهم لمكان زعموا أنه ضريحه، قال صاحب المؤنس، ص 18: ومنهم من قال: بل دخلها (إفريقية) خالد بن سنان زمن الفترة، ولكن لم يدخلها بدعوة، قال: وأنكر بعض الفقهاء ذلك وصححه آخرون.

وليس [في] التاريخ ما يؤيد تصحيح وجود خالد بصحراء الجزائر، وليس من المعقول أن يأتي نبي من جزيرة العرب إلى هذا الوطن البربري من غير أن يكون مرسلا إلى أهله، هذا على فرض أن يكون خالد نبيا، والصحيح أيضا خلافه".⁽²⁷⁾

وصفوة الكلام أنّ فكرة تقديس القبور وتعظيم أهلها موجودة في العالم القديم، وبقيت متسلسلة في المجتمع الجزائري، تخبو وتذكو نارها بحسب ظهور العلم بين الناس أو انحساره.

6. تاريخ فكرة تقديس الشمس:

عبادة الشمس ثمرة معتقدات قديمة جدا، فقد عرف البابليون عبادة الشمس في صورة إله (شمش)، وصورته موجودة في لوح حمورابي، كما جسّدها المصريون في صورة صنم (رع)، واشتهر بها قدامى أهل اليمن، والهنود والفرس والمكسيك، والأظهر أنها بدأت في مصر ثم انتشرت في العالم، والملاحظ في خريطة توزيعها، أنها تفسّلت بقوة بين الأمم التي تمتن الزراعة، لما للشمس من دور كبير فيها،⁽²⁸⁾ وهو نفس الملاحظ في تقديس الماء وعبادة العيون كما سبق، فإن الإنسان القديم كثيرا ما كان يعبد المتصرف -على حدّ اعتقاده- في موارده الاقتصادية ومصادر عيشه.

وبحكم أن بلاد المغرب أرض خصيبة، غنية بشتى أنواع الزروع والثمار، حتى إنه أطلق عليها لقب: سلة روما، فلا غرو أن تشتهر فيها عبادة الشمس، بل حصل التفنن في طقوس عبادتها، فقد قام قدماء الجزائر بتوجيه الغرف الجنائزية جهة الشرق تعظيما للشمس، كما تشهد له رسوم التاسيلي، وكانوا يتقربون إليها

بقرايين كما تفيدته وثيقة تاريخية ترجع إلى ذلك العصر، وهي رحلة هيروودوت؛ ومثله ما ورد في رحلة المؤرخ الروماني سيسرون (Cicero).⁽²⁹⁾

فإن تعجب؛ فأعجب من هذا استمرار قدماء المغاربة في عبادتها واسترسالهم فيها إلى ما بعد الفتح الإسلامي، ومن المفارقات أن ابن خلدون حكى عن بعض القبائل البربرية استمرارها على عبادة الشمس إلى عصره.⁽³⁰⁾

وهو ما نتلمس بعض آثاره إلى يومنا هذا، وكعادة مبارك الميلي في ربطه بين المعبودات القديمة وآثارها في أهل عصره اعتناء بتاريخ الفكرة الدينية، قال: "أما الديانة التي عرفها الأثريون لقدماء الجزائر، فهي عبادة الشمس والقمر ... وقد وقع شعبنا؛ فيما يقرب من هذه الوثنية -والتاريخ يعيد نفسه-؛ فمن آثار عبادتهم للشمس أن الولد حينما يثغرو تسقط سنه يرمي بها إلى الشمس، ويقول لها في بعض الجهات الشمالية: أعطيتك فضة أعطني ذهب، وفي بعض الجهات الجنوبية: أعطيتك سن حمار أعطني سن غزال".⁽³¹⁾

في هذا النص يقتفي الميلي الآثار المتبقية لهذه الطقوس، والتي تتمثل في قول الطفل -إذا أنغر- للشمس أعطني سنا من فضة، وأعطيك سنا من ذهب، وهذه بقايا وثنية -وفقا للميلي-؛ لأنها صرفاً لعبادة الشكر لغير الله تعالى، وإضافة المنع والعطاء إلى مخلوق لا يملك لنفسه من الأمر شيئاً، وهذا ما حذر منه الميلي في رسالة الشرك ومظاهره.

لكنَّ ما يشدُّ النظر هو رده الظاهرة إلى أصولها، وعزوه الحالة إلى سببها، وهو أنها من آثار عبادة الشمس التي وجدت في تاريخ الجزائر القديمة.

7. تاريخ فكرة التصوف:

بمجرد أن تعرف أن الميلي تلميذ الإمام ابن باديس، وأمين مال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ فإنه سيسبق إلى عقلك معارضته للتصوف، ونسفه لمبادئه، وغير ذلك من الاحتمالات التي لها ما يفسرها تاريخياً، بحكم الصراع الفكري بين مدرسة الفقهاء والصوفية قديماً، ومدرسة الإصلاحيين والطرفيين حديثاً، ولكننا لن ننحاز إلى دراسة هذا الخلاف؛ لأنه خارج عن هدفنا من هذا البحث، وهو تلمس تاريخ الفكرة الدينية، وبيان نسب الظواهر الاجتماعية بها.

وتبعاً لما سبق، فيمكننا القول بأن الميلي توسَّع في هذا الموضوع أكثر من غيره -حوالي تسع صفحات-، حتى إنه في خاتمة بحثه اعتذر عن طول الاستطراد؛ فقال: "وقد أطلنا خلاف عادتنا في هذا الموضوع، ولكننا في الحقيقة قد بالغنا في الإيجاز؛ فإنه موضوع طويل عريض، وله بحياة المسلمين الدينية والسياسية ارتباط قوي، فلا يجدر بالمؤرخ إهماله وإن لم يسعه استقصاؤه".⁽³²⁾

ويمكن تلخيص ما أورده في تاريخه عن الصوفية -مما له تعلق بالتأريخ للأفكار الدينية- في النقاط الآتية:
أ - أصل التسمية إغريقي: يرى الميلي أن أصل هذه التسمية إغريقي، فقال: "وهناك أقوال في توجيه لفظ الصوفي، نقضها القشيري في رسالته، وقال: لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق والأظهر أنه كاللقب اهـ.

ولم يوجه القشيري تلقيهم بهذا اللقب؛ فكأنه اعترف بأنه لا أصل له في العربية -وهو الحق-، فإن التصوف معرب تيوصوفية (Theosophie)، وهو لفظ يوناني مركب من تيوص بمعنى الإله، وصوفية بمعنى الحكمة، وهي طريقة رياضية لمعرفة الله، يزعم أهلها مناجاته ووحيه إليهم ونيلهم منه عرفانا ومننا خاصة، وأنه يتجلى لهم في الكون أو الطبيعة حتى يمتاز جوابه، ومذهبيهم وحدة الوجود، ولمريديهم درجات في السلوك إلى هذه الغاية⁽³³⁾.

ب - انتسب إليه صلحاء ربايون وطلحاء انتمازيون: قال الميلي: "وكان من الصوفية من يعتمد على الرياضة وحدها، ومنهم من يقيد بها بالدين، فتعددت مذاهبهم إلى سنيين، ومبتدعين، ومارقين من الدين؛ يقولون بالوحدة المطلقة أو الاتحاد المطلق أو الحلول المطلق أو الحلول الخاص"⁽³⁴⁾.

ج - حادث بعد المئتين: قال الميلي: "قال السهروردي: ولم يعرف اسم التصوف إلى المائتين من الهجرة اه، ولا يعرف بالضبط تاريخ ظهور التصوف ولا واضعه ولا أول صوفي ... ودخلت لفظة التصوف اليونانية إلى العربية لما ترجمت كتب اليونان والهند في الدور العباسي لا سيما أيام المأمون ..."⁽³⁵⁾.

د - استحوذ الصوفية المنحرفة على المشهد الاجتماعي ثم السياسي: يقول الميلي: "وقد ضج العلماء الناصحون والصوفية السنيون من أعمال عامة الصوفية وإضلالهم للعامة ... وعلت كلمة الصوفية فمثلوا أدوارهم مع العامة، وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيا وسياسيا"⁽³⁶⁾.

بمعنى أن تفشي التصوف المنحرف عن السُنَّة أسهم في تقهقر الجزائر من جميع المناحي عند الميلي، والذي يسترعي انتباهنا من مجموع هذا الكلام هو الربط التاريخي بين منشأ مصطلح التصوف والفلسفة الإغريقية، وهذا أمر غير مستغرب تاريخيا، غير أن الميلي يضيف هذا التأثير إلى العصر الإسلامي، وأنه حدث بعد المئتين من هجرة الرسول P، عقيب ترجمة كتب المنطق والفلسفة إلى اللسان العربي.

وطوعا لما تقرر؛ فأصل فكرة التصوف عند الميلي ليس إسلاميا صِرْفًا كما تزعمه الصوفية، بل إنه نتاج روااسب إغريقية انسكبت في الثقافة العربية الإسلامية؛ فتشربتها أفئدة أقوام من المسلمين وألبسوها الصوف تزهدا، وبهذا يظهر تاريخ فكرة التصوف بالفلسفة الإغريقية على حد ما انتهى إليه البحث المسهب للشيخ مبارك الميلي في تاريخه، وقد تقدم اعتذاره عن التوسع في هذه الفكرة، والسبب هو استحكام مظاهر التصوف في المجتمع الجزائري، وتغلب الجناح المنحرف من الصوفية على حساب الجناح الصوفي السني المتبع للشرع الذي يقر الميلي بوجوده، بيد أنه منغمر في طوفان الجناح المنحرف، فيبدو أن الميلي أراد أن يقطع عنهم وشيعة الربط بين تصوفهم وإسلام؛ فنشط إلى تأريخ فكرة التصوف وربطها بالإغريق، وشدَّ أزر هذا الرأي باعتراف إمامين من أئمة الصوفية، أولهما: الإمام القشيري الذي رجَّح بأن مصطلح الصوفية لقب لا اسم؛ لأنه لا يشهد له قياس ولا اشتقاق من جهة لسان العرب، وهو ما يُرَجَّح كَفَّة عُجْمَة هذه اللفظة.

وثانئهما: الإمام السهروردي؛ الذي صرَّح بأن هذا الاسم حادث بعد المئتين، وهو تاريخ ترجمة كتب الفلسفة إلى اللغة العربية كما تم الإلماع إليه من قبل.

وفي تقديري، أن نسبة التصوف إلى الفلسفة الإغريقية وإضافته إلى العصر الإسلامي يحتاج إلى تحقيق دقيق، على الأقل بالنسبة لتأريخ الأفكار الدينية في الجزائر؛ لأنّ بلاد المغرب القديم كانت منفتحة على شتى الحضارات، وتأثيراتها العقيدية والفكرية على ذلك ظاهرة، حتى إنّ بعض الباحثين أثبت وجود تواصل ثقافي قديم بين اليونان والمغرب القديم، إلى درجة إرسال بعثات طلابية إلى اليونان، كما حصل في عهد الدولة النوميديّة،⁽³⁷⁾ فغير مستبعد أن تكون فكرة التصوف قد دخلت ضمن ما دخل على بلاد المغرب القديم؛ لأنّ تزكية النفس والتعالى على شهواتها، مطلب ألحّ الإنسان منذ القديم على بلوغه، سواء من طريق الشرع المنزل أم من طريق رياضة النفس بآراء الرجال؛ فالإنسان كما يقول علماء الاجتماع كائن ديني.

ومهما يكن الجواب؛ فمؤرخنا الميلي ينتصر إلى رد فكرة التصوف إلى ثقافة الإغريق التي اجتاحت العالم الإسلامي عقب القرن الثاني الهجري.

8. تاريخ فكرة العرافة:

محاولة استطلاع الغيب أمر عرفته البشرية منذ العصور القديمة، فكَلَفُ الإنسان بالمستقبل حمله على استشرافه بأيّ وسيلة، ولم يقف الأمر عند عامة الناس وسوقتهم، بل تعداه إلى عليّة القوم من ملوك ووزراء وغيرهم؛ فقد يكون قرار خوض غمرات الحروب راجعا إلى منجم أو عراف، وما قول أبي تمام عنا ببعيد، حين امتدح الخليفة العباسي المعتصم بترفعه عن الإصغاء للمنجمين، ونُهوّه إلى مقارعة البيزنطيين، وتكلل جهاده بفتح عمورية؛ فقال:

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتُبِ ... في حدِّه الحدُّ بينَ الجدِّ واللعبِ.

من أجل هذا؛ تبوّأت هذه الفئة منزلة رفيعة منذ العهود القديمة؛ فرأس المملكة يصطفي أخبر الناس بالعرافة، ويجعله من بطانته الخاصة، وحاشيته المقرّبة، وهذا ما استوقف الشيخ مبارك الميلي في تاريخ الجزائر زمن خضوعها للإمبراطورية الرومانية؛ فضمن حديثه عن طبقات المجتمع وقتها، تحدث عن طبقات أهل السياسة ممن يتولون القيادة الدنيوية؛ ثم أتبعها بطبقات أهل الديانة فيها، ومن جملة هذه الطبقات التي أولاهما اهتمامه فئة العرافين، حيث حرص على بيان وظيفتها، وأهم من ذلك تجلية بعض إفرافات هذه الطبقة في المجتمع الجزائري المعاصر؛ فقال: "العرافون: يتولون أفراف الدجاج لجزرها ومعرفة الحوادث الغيبية منها، ويتفرسون أيضا في الضحايا، نظير ما يوجد اليوم في بعض الأفراد من خصوصية معرفة الحوادث بالنظر في عظام أكتاف الحيوانات، فهي من بقايا الوثنية".⁽³⁸⁾

فتأمل أن كتابته التاريخية لم تشغله عن ربط الخيط الواصل بين ظاهرة مجتمعية معاصرة بجذورها الضاربة في التاريخ، وهذا يُرسّخ القول بأن التفاته إلى تأريخ الفكر الديني للظواهر الاجتماعية لم يحصل عفو الخاطر، بل هو هدف أصيل، يحتقبه ضمن تدوينه لأيّ مرحلة أو حدث في تأريخه للجزائر.

وما أشار إليه؛ قد أدركته شخصيا وأنا صبي لم أكبر عن الطوق بعد، فعقب ذبح الأضحية في عيد الأضحى، وبعد تناول وجبة الكسكس بالكتف في اليوم الموالي، يتولى كبير الأسرة تجريد كتف الشاة من اللحم، وتقسيمه على الحاضرين، ثم يضع إبهامه عند نهاية عظم الكتف ابتداء من خط الأصبع الأول؛ ثم

ينظر إلى منتهى الإبهام، ويتطلّع ما يمكن حصوله ذلك العام برموز لم أفقها لصغر سني، وإنما ذكرت هذا تأكيداً لما حكاه الميلي من بقاء آثار تلك الوثنية القديمة في بعض نواحي المجتمع الجزائري، وإن كنت إخالها قد اندثرت بأخرة.

هذا، وزبدة المقال أن الشيخ المؤرخ مبارك الميلي استصحب شخصيته الإصلاحية في كتابة تاريخه، فربط بين الأفكار الدينية والطقوس التعبدية أو العقدية التي بقيت في المجتمع الجزائري المسلم بتاريخه القديم، وأبرز بواسطة ذلك أنّ أثارة ركام العقائد التي عاشتها الجزائر في تاريخها قبل قرون، لا زالت تُدلي بنسبها إلى بعض الظواهر الموجودة في عصرنا، وهذا الاستنتاج لست مبالغاً فيه؛ فقد ورد في كلام الميلي ما يفيد أنّه منه على ذكرٍ، وهو ما يستشف من قوله عقيب تعداد المذاهب العقدية الإسلامية التي انتشرت في الجزائر بعد دخول الإسلام إليها: "ومع ذلك فلا بد أن يُبقي المذهب أثراً في أتباعه وإن استبدلوا به غيره، لأن العامي ليس معه من العلم ما يفرق به بين المذهبين، فتجتمع لديه المتناقضات من حيث لا يشعر، ولو تجرد عالم مفكر لدرس وسطنا مثلاً من حيث المعتقدات، لألفى بين جنبي الواحد عقائد مختلفة، كان أهلها يتقاتلون من أجلها، ثم هو لا تحارب أجزاؤه بعضها بعضاً!"⁽³⁹⁾.

9. خاتمة:

ظهور النزعة الإصلاحية ملحظ بارز في الكتابة التاريخية عند الميلي، حيث وظّف العقيدة كعلم مساعد في تفسير بعض الظواهر الاجتماعية، ومن ثم ربطها بالمعتقدات القديمة في التاريخ؛ فتوصّل بذلك إلى التأريخ لكل فكرة دينية، مظهرها علاقة الظاهرة الاجتماعية بها، محاولاً إعطاء تفسيرات لها، وذلك على النحو الآتي:

- ربط بين فكرة تقديس الحمامات عند أهل بلده، بعبادة الجن عند قدماء أهل الجزائر.
- توضيح تاريخ فكرة تقديس العيون، بعقيدة عبادتها والتبرك بها وبالوديان والأنهار عند أهل الجزائر القدامى.
- تفسير وتعليل وتفنيد تقديس الجبال والكهوف، مع ربطها بما عليه أهل البلد في التاريخ الغابر.
- ربطه بين تقديس الشمس عند المحدثين، وعبادتها عند أهل المغرب القديم.
- توثيق الصلة بين تقديس القبور والغلو في المقبورين بما عرفته البشرية في غابر عهدها، وتفنيد دعوى نبوة خالد بن سنان العبسي وتعظيم العامة لقبره المزعوم.
- ربطه بين فكرة التصوف والفلسفة الإغريقية، مع بيان أثرها في تخلف المجتمع وفقاً لمنظوره.
- إبراز صلة العرافة باستنطاق الغيب من عظام الحيوان الموجودة في الجزائر القديمة زمن خضوعها للرومان.

وبهذه النتائج نرجو أننا انتهينا إلى تحقيق أهداف البحث، وعلى رأسها بيان تاريخ الأفكار الدينية في تاريخ الجزائر للشيخ مبارك الميلي، والتي يتبدى من خلالها ظهور النزعة الإصلاحية في كتابته التاريخية، وهو ملحوظ لم يحظ بالعناية والتنويه عند عامة من بحث في منهج الكتابة التاريخية عنده.

10. قائمة المصادر والمراجع:

- المؤلفات:

1. ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون ضمن تاريخ ابن خلدون، بيروت، دار الفكر، 1988م.
2. شنيقي محمد البشير: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، الجزائر، دار الحكمة، 2003م.
3. غنام محمد الصغير، الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، عين مليلة، دار الهدى.
4. فرنسوا دوس، التاريخ المفتت من الحوليات إلى التأريخ الجديد، ترجمة: د محمد الطاهر المنصوري، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2009م.
5. عبد الله حسين: تاريخ ما قبل التاريخ، القاهرة، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م.
6. الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، 1986م.
7. الميلي مبارك: رسالة الشرك ومظاهره، تحقيق: أبو عبد الرحمن محمود، الرياض، دار الراية، 2001م.

- المقالات:

1. دحمان رياض، "نظام التسخين في الحمامات الرومانية بالجزائر القديمة"، مجلة المواقف، المجلد 16، العدد 3، جامعة معسكر، السنة 2020م، 65-87.
2. رشيد مياد وزاوي أحمد، "الشيخ مبارك الميلي، عرض لحياته ومنهجه في الكتابة التاريخية"، مجلة الباحث، المجلد 12، العدد 03، السنة 2020م، 8-22.
3. شيباني محمد، "الحمامات الغربية بالقيصرية - شرشال - نموذجاً، دراسة معمارية أثرية"، مجلة قبس المجلد 2، العدد 2، جامعة الوادي، السنة 2018م، 245-273.
4. عمارة علاوة، "الشيخ مبارك الميلي ومواجهة المشروع الفرنسي لتاريخ الجزائر"، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد 03، السنة 2008م، 94-102.
5. عبد الغني متشاط، "جهود جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تدوين تاريخ الجزائر مبارك الميلي وأحمد توفيق المدني أنموذجاً"، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع، جامعة حسيبة بن بوعلي - الشلف، المجلد 07، العدد 02، 2022م، 26-34.
6. قبال مراد، "كتابة تاريخ الجزائر عند مبارك الميلي -شيخ المؤرخين الجزائريين-"، مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطة، جامعة يحيى فارس-المدية، المجلد 01، العدد 02، 2020م.
7. كيحل البشير، "المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم"، مجلة الخلدونية، المجلد 9، العدد 1، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة ابن خلدون - تيارت، السنة 2016م، 25-40.

الهوامش:

- (1) انظر: ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ج 1 ص 13.
- (2) فرنسوا دوس: التاريخ المفتت من الحوليات إلى التأريخ الجديد، ص 93.
- (3) غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 16.
- (4) انظر: كيحل: المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم، ص 33.
- (5) انظر: شيباني: الحمامات الغربية بالقيصرية "شرشال"، ص 250، دحمان: نظام التسخين في الحمامات الرومانية في الجزائر الرومانية، ص 70.
- (6) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 52.

- (7) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 52.
- (8) انظر: كيجل: المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم، ص 33.
- (9) الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 148-157.
- (10) غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 17-19.
- وقد تصدى الميلي لمظاهرة التبرك بالأودية؛ فقال: "وجاوزتم ذلك إغراقاً في الشرك إلى الصخور الضخمة والأودية الموحشة". الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 364.
- (11) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 75.
- (12) حسين: تاريخ ما قبل التاريخ، ص 93.
- (13) غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 69.
- (14) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 75.
- (15) الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 364.
- (16) الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، ص 258. والهندي، هو نبات التين الشوكي.
- (17) انظر: غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 71-72.
- (18) انظر: شنيقي: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، ص 155-156.
- (19) أخرجه أحمد، رقم 21897، والترمذي، رقم 2180، وقال: "هذا حديث حسن صحيح".
- (20) انظر: غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 23 و 68، كيجل: المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم، ص 28-30.
- (21) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 76.
- (22) من أشهر هذه الأحاديث ما صحَّ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ ؓ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ «لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» قَالَتْ: «فَلَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا».
- أخرجه البخاري، رقم 1390، ومسلم، رقم 529.
- (23) غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 23.
- (24) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 76.
- (25) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 76.
- (26) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 76.
- (27) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 298.
- (28) حسين: تاريخ ما قبل التاريخ، ص 92.
- (29) انظر: غنام: الملامح الباكورة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا، ص 19-20، كيجل: المقدسات والمعابد الطبيعية لدى الإنسان المغاربي القديم، ص 35-36.
- (30) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 123.
- (31) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 75.
- (32) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 346-347، وانظر حديثه عن التصوف: ج 2، ص 340-349 و 498.
- (33) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 342.
- (34) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 343.
- (35) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 342-343.
- (36) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 345 و 348.
- (37) انظر: شنيقي: أضواء على تاريخ الجزائر القديم، ص 161-162.
- (38) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 1، ص 267.
- (39) الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 2، ص 169.